Soroud (10) (2026) : 131 - 150

al-ʾusus al-ʿilmiyya wa-ʿalāmātuhā fī l-naqd al-adabī
Scientific Foundations and Their Manifestations in Literary Criticism
الأسُس العلمية وعلاماتُها في النقد الأدبي

حميد لحمداني
خبير في المناهج النقدية والدراسات السردية والترجمة
أستاذ التعليم العالي في جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم
الإنسانية فاس. المغرب

Abstract: The present study seeks to demonstrate the strong relationship between the various sciences and the practice of literary criticism, and to contribute to the shaping and development of critical programs. This occurs in parallel with the treatment of literary texts, the assimilation of their structural nature, and the subsequent uncovering of their allegorical and symbolic connotations.

It has therefore been necessary to attend to the ways in which scientific disciplines contribute to the development of the mechanisms of literary criticism. Among these fertile sciences are mathematics, logic, and empirical forms of knowledge, followed by the human sciences such as history, sociology, psychology, and linguistics. This scientific interaction has yielded tangible results in the elaboration of curricula and in the assimilation of texts from multiple angles—structural, semantic, and hermeneutic—in addition to historical, social, and psychological analyses.

Given that most literary structures are of a metaphorical, suggestive, and symbolic nature, and that what appears on the surface does not necessarily disclose what they conceal, they call for additional means to support what critical methods have accomplished. To address this issue, it has been proposed that the metaphorical, suggestive, and symbolic dimension requires supplementary faculties, namely introspective and intuitive capacities. This has manifested itself, in an almost rational manner, in hermeneutic currents that have adopted the principle of "suspicion," calling for caution prior to any act of interpretation. The aim has been to curb the excesses of scientism, which seeks to attain absolute truths without regard to their essentially relative outcomes. This leads us to affirm that contemporary hermeneutic criticism benefits from a range of disciplines in its approach to literary texts, allowing for a form of reflection that

often moves away from definitive truths and opens onto interpretive hypotheses and possibilities, thereby enriching an ongoing dialogue around these works.

Keywords: science – criticism, literature, truth, relativity, interpretation, suspicion.

الملخص: يتَّجهُ موضوع الدراسة نحو إثبات العلاقة المتينة بين مختلف العلوم وممارسة النقد الأدبي والإسهام في تنشئة المناهج النقدية وتطويرها. يحدث هذا بموازاة معالجة النصوص الأدبية واستيعاب طبيعتها البنيوية والكشف عن مدلولاتها الاستعارية والرمزية.

لذا كان من الضروري الاهتمام بكيفية مساهمة العلوم في تطوير آليات النقد الأدبي. من هذه العلوم ذات العطاء نذكر: الرياضيات والمنطق والمعارف التجريبية، ثم العلوم الإنسانية كالتاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس واللسانيات. وقد كانت لهذا التفاعل العلمي نتائج ملموسة في تطوير المناهج واستيعاب النصوص من زوايا متعددة: بنيوية ودلالية وتأويلية، بالإضافة الى التحليلات التاريخية والاجتماعية والنفسانية.

وحيث أن أغلب البنيات الأدبية تكون ذات طابع استعاري وايحائي ورمزي، وأن ما يتجلى في ظاهرها لا يكشفُ بالضرورة عما تخفيه، فإنها تحتاج إلى وسيلة أخرى داعمة لما قامَت به المناهج النقديَة. وقد جاء في اقتراح التوافق بخصوص هذه المشكلة، أن الطابَع الاستعاري والايحائي والرمزي لابد أن تتولاهُ قدراتٌ إضافية ذاتية، تأملية وحدسية. وقد تبين ذلك، بشكل قريب من العقلانية، في الاتجاهات التأويلية التي رفعت شعار "الارتياب" الداعي إلى الحيطة قبل إصدار التأويلات، وكان القصدُ هو التخفيفُ من النزعة العلمية المُفرطة الداعية لبلوغ الحقائق التامة ولا تكترث بالنتائج النسبية. هذا ما دعانا للقول بأن النقد التأويلي المعاصر يستفيد من مختلف العلوم المُشار إليها في تعامله مع الأدب ويسمح بتأمل النصوص الأدبية التي غالبا ما تبعده عن الحقائق التامة وتقربه من الاحتمالات والفرضيات التأويلية التي تغني حوارا لا ينتهي حولها.

الكلمات المفاتيح : العِلم ، النقد ، الأدب ، الحقيقة ، النسبية ، التأويل ، الارتياب.

حول مفهوم العلم وأنماطه

فيما يخص التعريف العام للعلم: سبق للباحث البريطاني برتراند راسل Bertrand Russell أن قدَّم مثالا عنه بسيطا، يتعلق بخلاصة قد تكون ناتجة عن المعاينة المتكررة لظاهرة مُحَدَّدة، معَ الإشارة إلى أن هذه المُعاينة قد تَسمحُ بإصدار تصريح تعميمي يمكن اعتباره قاعدة علمية. وما قدمه في هذا الصدد يتعلق بقول عفوي لشخص ما، يصرح فيه مثلا بأن "النار حارقةٌ"، إذ يرى "راسل" أن هذه النتيجة تبدو بمثابة "قاعدة" مُعتمِدة

على عدد من المُعاينات والتجارب جعلت الشخص يعتقد يقينيا بصحتها. غير أن "راسل" لا يرى مع ذلك أن جميع القوانين العامة في العلم ستكون صائبة، لأن المجال العلمي واسع النطاق ومُعقد الظواهر والحيثيات، كما أن التعميم فيه قد تنسخه حقائق جديدة أو تعمل بالكامل على تغييره. يتجلى ذلك حسب رأيه فيما ما لو قال شخص آخر مثلا، بأن "الأجسام التي لا يُمْسكها شَيىءٌ في الهواء تَسقُط"، فسواء استند في كلامه إلى ملاحظاته الشخصية أم إلى نظَرية الجاذبية عند جاليليه Galillée، فإن قوله في نظر "راسل" غير صائب[1]، لأنه لا يراعي ما قد يُستثنى من قانون الجاذبـية، كأن يكون الجسم قادرا بطاقته الخاصة على البقاء في الهواء وبذلك يتجنبُ السقوط. وقد انتقى الباحثُ أمثلة عن الأجسام التي تتحقق فيها هذه الخاصية كالطائرة والمنطاد والفراشة..الخ[2]، إذن فمُجانبة الصحة في الحكم العلمي تكون عادة ناتجة عن بعض الحيثيات المُغايرة التي يَستدعي الأمرُ أخذَها بعين الاعتبار لبلوغ الصواب، ولكن قد لا يحصل ذلك رغم أن تلك الحيثيات تكون متعلقة بحقيقة علمية جديدة تُبطِل ولو استثنائيا مَفعول وصلاحية نظرية سابقة الحضور. ولعلنا نقف هنا على ما يمكن اعتباره هامشا من الخطأ الذي قد يحدُث أن يقع، حتى في العلوم الدقيقة، وبذلك قد تجد النظرياتُ العلمية أحيانا نفسَها مُطلة على ضفاف النسبية أو الافتراضات والغموض، وهذا يستلزم إعادة النظر لتصحيح معَطياتها السالفة.

يقدم الباحث البريطـاني راسل أيضا المزيـد من الفائـدة في كتـابه:" النظرة العلمية " عندما يوسع تعريفه للعلم فيما سماه : " مميزات الطريقة العلمية" دون إغفال تلك الاستثناءات المُحتملة التي تجعل العلم أحيانا على عتبة اللاحقيقة أو الوقوع في نسبية المعرفة، إذ يرى أنه: ((لكي نَصل إلى قانون علمي، يجب أن نمر بثلاث مراحل رئيسية: الأولى ملاحظة الحقائق ذات الدلالة، والثانية الوصول إلى فُرْض يُفسِّرُ هذه الحقائق إن صَحَّ، والثالثةُ أن نستنبط من هذا الفرض بطريق القياس نتائجَ يمكن اختبارُها بالملاحظة، فإذا تبينت النتائج قُبِلَ الفَرضُ موقتا على أنه فرضٌ صحيح، وإن كان في العادة يَحتاج إلى إجراء تعديل فيه فيما بعد، نتيجةً لكشف حقائق جديدة.))[3] (راسل. ص: 51) وهذا يعني في نظرنا أن العلوم البحتة وإن كانت مُعتَدَّة في الغالب بحقائقها، فإنها، بين الحين والآخر، تكون في حاجة ماسة إلى تعديل أو تغيير فيها، إذا ما تم الكشفُ عن معطيات مُستحدثة.

1 – برتراند راسل Bertrand Russel "**النظرة العلمية**. ترجمة: د.عثمان نويه. مراجعة: إبراهيم حلمي عبد الرحمان. الطبعة الأولى. دار المدى للثقافة والنشر. بغداد. 2008. ص: 11.
2 – برتراند راسل Bertrand Russel "**النظرة العلمية** .المرجع السـابق ص: 11.
3 – **النظرة العلمية**. برتراند راسل Bertrand Russell. مرجع مذكور ص: 51.

وفيما يتعلق دائما بتوسيع النظرة لمفهوم العلم وأنماطه، نجد بعض التعريفات المُعاصرة التي ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار، لأنها تنتقل بعد التعريف إلى التمييز بين عدد من الحقول العلمية، كل حقل منها تُحَدَّدُ خصوصياتُه ومَجالاتُ اشتغاله، دون أن يُلغي ذلك بعض علامات التماثل القائمة بين هذه الحقول.

في هذا الصدد يرى الباحث جان بول توماس - J. P. Tomas، أن العلم دالٌّ على مبادرات ذهنية تعمل جاهدة لبلوغ نتائج معرفية ثابتة وراسخة، وقد اعتمدَ في هذا التعريف على شبه اتفاق، برز في عدد من الاتجاهات الفلسفية عند مُحاولاتها تحديد مفهوم العلم. يُذكر منها على الخصوص ما قام به قديما أفلاطون في جمهوريته عندما قارن بين مفهوم العلم ومفهوم الرأي، فوجد أن الرأيَ مُتغيرٌ، ولذا تبقى علاقتُه قائمة على الدوام بما هو مَظهري، أي ذلك الذي نعتقده أو ندركه ونُبدي حوله رأينا، في حين أن العلمَ دالٌّ مباشرة على المعرفة في أرقى مستوياتها، لأنه يُوصِلُ غالبا إلى ما يُعتَبرُ حَقائقَ واقعية. مكانةُ العلم إذن مُختلفة في نظر هذا الفيلسوف عن وِجهات النظر الشخصية وكذا عن المُعتقدات والمُسلمات، أو كل ما يأتي في سياق الشائعات التي يَحكمها الاختلاف[4].

يشير توماس بعد هذا إلى أن الإحالة إلى المفاهيم العامة للعلم التي يُقصدُ بها علوما مختلفة المستويات، قد لا تكون دالة على تلك القوة الإثباتية التي يتميز بها الفكر البشري، على غرار ما نجده مثلا في حقلي الرياضيات والمنطق. وهذه إشارة مُهمة في نظرنا، لأنها دالة على أن مُختلف العلوم التي يمكن أن نتحدث عنها أو نحيل إليها ليست بالضرورة كلها متساوية في درجات قوتها العلمية، فإذا كانت الرياضيات ومعها المنطق يمثلان مستويين علميين راقيين، فإن علوما أخرى قد لا تبلغ هذا السقف بالضرورة. هذا ما جعل توماس يلجأ إلى ذلك التقسيم الذي يُميز بين ثلاثة حقول علمية تختلف في درجات عِلميتها وقوتها الإثباتية وهي كالتالي[5]:

– الحقل الأول يختص بمجالي الرياضيات والمنطق باعتبارهما يمثلان أعلى درجة في الإقناع والإثبات العقلي.

4 - Voir l’article suivant Jean Paul Tomas.: **Notion de Science:** encyclopedie Universalis https://www.universalis.fr/encyclopedie

5 - Jean Paul Tomas - **Notion de Science:**. Encyclopedie Universalis.

وبخصوص الحقل الثالث الخاص بالهيرمينوطيقا والاتجاه الظاهراتي نحيل إلى مقال الكاتب: تيري إجلتون: "**الظاهراتية والهيرمينوطيقا ونظرية التلقي**" ترجمة محمد الخطابي. مجلة علامات العدد الثالث منشور الكترونيا بتاريخ 13 غشت 2020. (دون ترقيم الصفحات). ولمتابعة تعريفات الهيرمينوطيقا تاريخيا عند عدد من الباحثين في هذا المجال التأويلي نحيل إلى كتاب:" – عادل مصطفى "**فهم الفهم مدخل إلى الهيرمينوطيقا نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامير**". مصر . مرايا الكتاب ورؤية للنشر والتوزيع. القاهرة الطبعة الأولى، 2007. يُنظَرُ على الخصوص إلى ما ورد في الصفحات التالية: 66 – 69 ، 72 ، 397 – 399 ، 409.

– الحقل الثاني يُنسَب إلى العلوم التجريبية ومنها الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، فكلها تعتمد على التجارب والوصف والمعاينة للظواهر من أجل تحديد خصائصها ووظائفها وتفاعلاتها وتحصيل نتائج تلك التفاعلات من خلال وضع النظريات العلمية.

– الحقل الثالث خاص بكل ما يندرج في المجال الهيرمنوطيقي (أي التأويلي) المتجه نحو مجالات مختلفة ذات طبيعة نصية وظواهرية وكل ما هو رمزي أو إيحائي مما يكون في حاجة إلى التفسيرٍ والفهمٍ أو تأويل، واغلب مكونات هذا الحقل لها علاقة بالقضايا الإنسانية.

السؤال المطروح هنا: أين يتموقع النقد الأدبي ضمن تلك الحقول الثلاثة؟ هل هو في منزلة حقل واحد منها؟ أم أنه ينتقي من مجموعها ما يلائمه؟ وإلى أي حد تكون علامات العلم مَلحوظةً فيه أم أن منظوراتهِ تَمضي في اتجاهات مُغايرة؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة ليست سهلة التحصيل، إلا إذا عرجنا على فهم ومعاينة طبيعة الموضوع الذي يَشتغل عليه النقد الأدبي في تحليلاته للنصوص، هذا الموضوع طبعا هو الأدبُ نَفسُه، ونعلم أنه ليس مادة ملموسة ولا هو ظاهرة قابلة بسهولة للفحص الدقيق واستخلاص ما هو يقيني، وبمعنى آخر ليس ظاهرة مُطاوعة على الدوام لأن تُعالج بصرامة علمية؟ وبحكم أن الأدب يطغى فيه العنصر التخييلي، فإن مهمة الناقد لن تكون بسيطة، ذلك أن مواجهة العناصر الاستعارية والرمزية والإيحائية والكنائية والمجازية في الأدب، غالبا ما تُبقي نتائج التحليل في حدود التأويلات الترجيحية.

هذا لا يعني مع ذلك أن النقد الأدبي لا يمكن أن يتسلح بمختلف العلوم لتقريب القراء والمهتمين من استيعاب بنيات وحيل الأدب ومدلولاته الداخلية، الاستعارية والكنائية والرمزية. ومعلوم، من جهة أخرى، أن الأدب مجالٌ قد أحاط كيانَهُ منذ القديم إلى يومنا هذا، بعلوم مختلفة: علومِ النحو والبلاغة واللسانيات وعلم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس دون ان يَغفَلَ نقادُه عن استثمار خاصية الإقناع المنطقي والحجاجي لكي يثبتوا للمتلقين أنهم بلغوا قسطا من الحقيقة في تحليلاتهم للنصوص الأدبية وليس إلى الحقائق المطلقة. وهذا ما سنحاول توسيع التحليل فيه ضمن القسم الأخير من هذه الدراسة.

العلاقة المُبكرة بين العلم والنقد الأدبي

يبدو أن كل من يريد البَحثَ في علاقة النقد الأدبي بالعلم، عليه أولا أن يشير إلى بعض الدراسات التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر حين تأثر عدد من نقاد الأدب بفلسفات داعية إلى الحرص على التعامل مع الفنون، ومنها الأدب، بإجراءات علمية تعزز مصداقية نتائج التحليل. ومن النقاد البارزين الذين رسموا معالم المنهج الأدبي

العلمي نذكر في مقدمتهم الباحث الفرنسي هيبوليت تين Hippolyte Taine الذي تأثر بمن سبقه من النقاد الداعين للحرص على الموضوعية في دراسة الأعمال الأدبية ومنهم على سبيل المثال مدام دو ستايل Madame De Staael التي كانت من بين من مهد لربط الأدب بالواقع التاريخي والاجتماعي حرصا على ممارسة التحليل الموضوعي، وقد تبلور هذا الاتجاه بصورة أوضح عند هيبوليت تين، الذي نظر إلى المصنفات الإنسانية على أنها ظواهر واقعية وأعمال يلزم تبيانُ خصائصها والبحث في دواعيها، وتفسير مدلولاتها، واتجه بجرأة أقوى لجعل المنظور العلمي التاريخي القريب من التجريب نبراسا لاستيعاب طبيعة الأدب وارتباطه بالبيئة والعرق والزمن، تماما كما يفعل عالم النبات حين يميز، من خلال معاياناته، بين خصوصيات وأصناف النباتات[6]، وقد رسم "تين" معالم تصوره في هذا الاتجاه النقدي الذي يرى أنه منهج معاصر شَرع في إسناد العلوم المعنوية، وخاصة النتاجات الإنسانية، وكل ما له علاقة بالفنون، وبذلك تصبح هذه عبارة عن وقائع يمكن تعيينُ خصائصها والبحثُ في دواعي ظهورها[7]..

على أن بعض الانتقادات التي وُجهت لتصور تين لاحظت أن الهدف الأسمي من تعامله العلمي مع الظاهرة الأدبية لم يقف عند حدود نتائج المعاينة والاستنتاج، فبحكم تشبُّع هذا الناقد أيضا بفلسفتي باروخ سبينوزا وفريدريش هيكل، لكونهما معا يجعلان حقائق الأشياء والظواهر العيانية مرجعا مثاليا، لذا بدا "تين" مُقتنعا بإمكانية أن يقودَهُ العلمُ بالظواهر، ومنها الإبداع الأدبي، نحو حقائقها الجوهرية. وأبرزُ مثال على ذلك عنده محاولة إرجاع كل حقيقة إبداعية إلى جوهر افتراضي، وقد جلب عليه هذا انتقادا حادا، لكونه أبْعَدَ بَحثَه عن العلم عندما أوصلته هذه الخطوة للتحول نحو ما سماه الملكات الرئيسية، وهذه علامة على هيمنة الإجراءات الحدسية والانطباعية[8]، كما أن اعتقاد " تين" بأن العرق مَسؤولٌ عن انبثاق الموهبة الإبداعية، سيبعده عن كل ما هو مُثبَتٌ بالدلائل العيانية والمنطقية. وقد واجهتْ أفكارَ تين هذه، انتقاداتٌ تمضي في هذا الاتجاه من قِبَلِ من ساهموا في تنشئة النقد العلمي، ونذكر منهم على الخُصوص الباحث: إميل هينكوين Emile Hennequin الذي رأى أن فرضية الملكة الإبداعية التي جاءت عند هيبوليت تين مُرتبطةً بالمؤثرات العرقية، وإذا ما اعتُبر هذا مُحتملا، فإن نقاء الجنس

6 – النقد الأدبي. تأليف: كارلوني وفيللو. ترجمة: كيتي سالم، مراجعة: جورج سالم. منشورات عويدات. بيروت – باريس. الطبعة: الثانية. 1980. ص: 46 – 49. وللتوسع النسبي حول منهجية النقد العلمي عند هيبوليت تين يتم الرجوع إلى كتابنا: "**الفكر النقدي الأدبي المعاصر مناهج ونظريات ومواقف**" نَشْرْ: المُؤلِّف. مطبعة أنفو برانت. فاس. المغرب، الطبعة الثانية. 2012. ص: 46 – 52.

7 - Gérard Delfau et Anne Roche: **Histoire Littéraire et Interprétation du fait Littéraire**. Seuil . 1977. p : 56.

8 – كارلوني وفيللو : "**النقد الأدبي**". ترجمة: كيتي سالم. مذكور سابقا. ص: 51 – 52، 54.

من الصعب إثباتُه لأن الأجناس في نظره دائمة الاختلاط، وبذلك تَبطُلُ فَرضيَّة "تين". كما يرى هينكوين أن الأدب يَلزَمُ أن يُنسَب إلى تأثير اللُّغة وليس إلى مَفعول العرق. ومعنى ذلك أن التأثير الذي يُمكن أن يُساهم في تكوين مَلكة أيِّ مُبدع كان، سيتم عن طريق فاعليَّة النصوص الإبداعية الموجودة سابقا. والملكة الإبدَاعية في هذه الحالة سيتولى البَحثَ فيَهاَ علمُ النفس الفسيولوجي[9].

دور العلوم البحتة في الممارسات النقدية

تبين لنا، في كل ما سبق، أن النقد الأدبي بالرغم من نسبية بلوغه للحقائق، فإنه يستفيد في تطبيقاته من معظم ما أسَّسَتْ عليه مختلفُ العلوم عملياتها الإجرائية والاستقرائية والاستنتاجية والتنظيرية. والمفروض في النقد الأدبي أن يُمَارس الإقناع والإثبات والإحالة في تضاعيف تحليلاته، والإقناع والإثبات موجودان في الحقل المعرفي الموصوف بالعلوم المُجردة التي يلتقي فيها المنطق بالرهان الرياضي، فهما معرفتان متداخلتان كما ورد في الدراسات التي تناولت العلاقة بينهما، وخاصة في نطاق ما يسمى النظرية اللوجستية logistic theory التي يرى مُنظروها أن الرياضيات البحتة تنتمي إلى المنطق الصوري وتمثل فيه جزءا وامتدادا ولا تشتمل الرياضيات، تبعا لذلك على أي شيء آخر خارج عن هذا المنطق[10].

وهذا يعني في نظٍرنا أن توظيف التحليل المنطقي في الدراسات النقدية الأدبية لا ينأى كثيرا عن التفعيل الرياضي ضمن المنطقي. ونجد مثالا بارزا على ذلك في النقد التحليلي المنطقي الاحتمالي ضمن كتاب كلود بريمون Claude Bremond بعنوان:" منطق الحكي logique du récit"وقد ركز فيه على:((إمكانية وصف الشبكة التامة للاختيارات المنطقية المتاحة لراوٍ ما، عند أي نقطة من نقط حكيه، لكي يُتَمِّم القصَّة المَبْدوءة))[11]. (بريمون. ص: 7)، وهذه دراسة علمية منطقية واضحة المعالم غرضها الأساسي تشييد علم منطقي عام للبنيات السردية كيفما كان نوعها معتمدة على المسببات واحتمالات النتائج. والواقع أن كلود بريمون صرح بأنه ساهم في تطوير علم

---

9 - Emile Hennequin **La critique Scientifique**.. Libraires- Editeurs. Troisième Edition. PARIS.1888. p : 94- 95, 96 – 97, // 102. == .

وللتوسع في مدى مُساهمة العلم في النقد الأدبي عند تين **Taine** وبرونتيير **Brunetièr** ، باعتماد منظور هربيرت سبينسر، يمكن الرجوع الى الدراسة التحليلية التالية:

- Marie Geuthmuller «**Herbert Spencer et La critique Scientifique, Taine, Hennequin, Bruntière.** Arts et Savoirs [en ligne],4 l 2014, mis en ligne le 15 mai 2014 ,consulté le 20 avril 2019.URL : http://journals.openedition. org/aes/286 ;DOI ;10.4000/aes.286 . p : 94 –95 , 96

10 – محمد ثابت الفندي: "**أصول المنطق الرياضي**" . الطبعة الأولى. دار النهضة العربية للطباعة والنشر . بيروت. 1 972. ص: 100

11 - Claude Bremond : **Logique du Récit**. Seuil.1973. p :7

منطقي للسرد اعتمادا على من سبقه في تشييد هذا الاتجاه الوصفي والمنطقي من الباحثين الشكلانيين الروس وخاصة فلاديمير بروب V. Propp:" في كتابه: "مورفولوجيا الحكي[12] Morphologie du conte.

إن الاندماج الحاصل بين علمي المنطق والرياضيات من منظور النظرية اللوجستية المُشار إليها سابقا، يجعلنا نهتم بالدور الذي يقوم به أحد فروع العلم الرياضي وهو الإحصاء الذي تم استثماره في الدراسات النقدية الأسلوبية. وقد كان لنا اهتمام مبكر متعلق بأهمية النتائج التي يمكن للناقد الأدبي أن يَبلُغها من خلال الإحصاء النوعي والمقارنة الكمية المتعلقة بتعدد الأساليب المتعايشة في حضن الأعمال الروائية المتعددة الشخصيات وزوايا النظر والانتماءات الاجتماعية، وما يبرز عن ذلك من قدرة الإحصاء على تمكين الناقد من التمييز مثلا بين الروايات الحوارية، التي تتعدد فيها الخامات الأسلوبية، والروايات المنولوجية التي تمضي في نوعية أسلوبية واحدة، ففي الروايات الأولى المتعددة الشخصيات تتباين الأساليب ويحتدم الحوار وتختلف المواقف، أما في الروايات المنولوجية فتبرزُ الهيمنة الأسلوبية الواحدة للسارد، رغم وجود عدد من الشخصيات، مما يعني أن الرواية ذات وجهة نظرٍ أحادية[13]. وقد مَثَّلَ البَحثَ في العالم العربي حول هذا الموضوع الإحصائي والأسلوبيِّ الباحثُ المصري سعد مصلوح، حين خصص كتابه: "الأسلوب دراسة لغوية إحصائية"[14] للوقوف على التباينات الأسلوبية الحاصلة في روايتين عربيتين، معتمدا في بحثه على تطبيق إحصائي لمعادلة أسلوبية، ذكرَ أنها كانت من ابتكار ناقد ألماني يدعى (أ. بوزيمان A. Buseman) منذ سنة 1925 واستنتج أن إحدى الروايات لا تمضي على وتيرة أسلوبية واحدة، مما يدل في نظره، على أن المؤلف تعمَّد تغيير الأساليب ليجعل لكل شخصية في الرواية ما يناسبها من التعبير، بينما اعتبر الرواية المُلتزمة بوتيرة أسلوبية واحدة تُبرهنُ أن المؤلف يُهيمن ببصماته اللغوية على جميع شخصيات روايته. وقد تبين لنا أن سعد مصلوح كان ميالا لقيمة تعدد الأساليب، لأنها في تصوره علامة على منح كل شخصية ما يناسبها من التعبير عن نفسها ومواقفها، وهذا ما اعتبره مزية في الإبداع الروائي، فالمؤلف الحق في نظره لا يتحدث نيابة عن شخصياته الروائية[15].

---

12 - Ibid : p : 8.

13 – عالجنا سابقا هذا الموضوع عند تقديم نموذج أسلوبي إحصائي في كتابنا: "**أسلوبية الرواية مدخل نظري**" تحت العنوان الفرعي التالي: **نموذج إحصائي للأسلوب الروائي في العالم العربي**. صدر الكتاب ضمن منشورات دراسات سال (دراسات سيميائية أدبية لسانية). مطبعة النجاح الجديدة. البيضاء. 1989 ص: 29 – 31

14 – صدر كتاب: **الأسلوبية دراسة لغوية إحصائية** لـ د. سعد مصلوح، عن دار الفكر العربي القاهرة مصر في طبعته الثانية المعتمدة لدينا سنة: 1984.

15 – د. سعد مصلوح : "**الأسلوبية دراسة لغوية إحصائية**". مذكور سابقا. ص: 108 – 109.

كل ما ذكرناه بخصوص المجال العلمي للمنطق والرياضيات يبين بالملموس أن الدراسات النقدية الأدبية تستفيد من أكثر المعارف تجريدا رغم أن موضوعات بحثها تنتمي إلى الفنون ذات الطبيعة التخييلية. لذا حين يتقلد الناقدُ مهمته في هذا المجال يُفترض أن ألا يكتفي بخطاب تلخيصي للنص ولا بصياغة أدبية ثانية له، ولكن بتحليله بعلم معرفي ومنهجي يتعمق أوليا بنياته ويُمهد السبيل لبلوغ نتائجً التحليل في مسار إقناعي وليس في نزهه تسلية هاربة من مهمتها الأصلية.

المعاينة والتنظير السيميائي في النقد الأدبي

معلوم أن الاتجاه البنيوي والسيميائي في معاينة النصوص الأدبية وتحليلها، كانت غايتُه الأساسية هي تحويل المُمارسة النقدية إلى مبادرة علمية. يدل على ذلك، اعتبار النصوص ظاهرة لسانية قابلة للفحص والمعاينة ما دامت تمثل مجموعة وحدات متشابكة داخل بناء كلي، ولا تَمتلك أيُّ وَحدة في هذا البناء دورَها ولا مَدْلولَها إلا بمراعاة وجودها المتفاعل مع جميع الوحدات الماثلة في النص، ومما يعزز الهدف العلمي في هذا الاتجاه هو حصرُ حدود التحليل في المعاينة وإبراز الخصوصيات والوظائف المنجزة في البنية النصية، والنظر إلى هذه البنية باعتبارها كلا شموليا قائما بما فيه من وحدات، لا بما يمكن أن يَربطُها بحياة المؤلف ولا بما يجري في الواقع السوسيولوجي أو النفسي. التعامل إذن مع موضوع البحث في هذا المجال البنيوي السيميائي يبدو لنا شبيها بتعامل الباحثين في نطاق العلوم التجريبية، مع الظواهر الكيميائية والفيزيائية أو البيولوجية، وذلك حصريا من حيث الملاحظة والفحص والاستنتاج بغية تحديد طبيعة الظواهر والعلاقات القائمة بينها وخصوصيات تكوينها ووظائفها ومدلولاتها، والغاية من وراء ذلك هي بناء تصور شامل للظواهر النصية والعمل بعد ذلك على تحويله إلى معرفة تنظيرية. هذا ما حققه مبكرا الشكلاني فلاديمير بروب V. Propp فيما اعتبره بنية عامة للحكايات العجيبة بمتتالياتها الوظيفية ودلالاتها الداخلية[16].

وحين نبحث فيما أثمرته الشكلانية والبنيوية عبر تاريخ النقد الأدبي نجد، في نطاق المعاينة الدقيقة للوظائف اللغوية، ما قام به رومان جاكوبسون عند استخلاصه لتلك الوظائف الست التي اعتُبرت تصورا نظريا عاما لكل خطاب لغوي، سواء كان شعرا أم نثرا ، بحيث تتحدد طبيعة الخطاب وسِماته وفق نسبة حضور كل وظيفة فيه

16 - Claude Bremond: **Logique du Récit**. Seuil.1973. p :130 .

وللتوسع في هذا الجانب: يمكن الرجوع إلى كتابنا: "**بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي**". المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى. بيروت. 1991. ص: 25 – 28.

من الوظـــائف التالية: الوظيـفة المرجعية والتـعبيرية والإفهـامية والانتـباهية، ثـم الميتا لسانـــية (= التســنين اللساني)، وأخـــيرا الوظيــفة الشـعــرية (= الإنشائية)[17]، وقد تم استخلاص تلك الوظائف بواسطة مُعاينة العلامات والوظائف التعبيرية المختلفة.

نجد أيضا من بين الاتجاهات النقدية والتنظيرية، ما كان يعتمد على علم اللسانيات عند دو سوسور De Saussure الذي شكّل قاعدة أساسية في ممارسة النقد البنيوي والسيميائي. وقد مثل هذا الإتجاه الباحثُ الفرنسي. أ. ج. غريماس A. J GREIMAS الذي تأثر أيضا بطلائع علم السرد الشكلاني عند فلاديمير بروب. غير أن غريماس أحدث في المجال البنيوي والسيميائي طفرة معرفية وعلمية مُتقدمة عما سبق أن أنجزه الشكلانيون والبنيويون. تجسدت في طموحه لوضع علم عام للبنيات السردية، وهذا ما تحقق لديه بصورة بارزة، حين مهد لصياغة النموذج العاملى بالتمييز بين الجانب الوظيفي والجانب الوصفي في كل بنية سردية، مع التأكيد بأن العلاقة بين الجانبين أساسية في تشييد العوالم السيميائية ابتداء من أبسط بنية مَشهديّة ممكنة، شريطة أن تَحضُر فيها ذاتٌ فاعلة وموضوع يقع عليه الفعل[18]. ولكي يُشيِّد غريماس ما يسمى النموذج العاملي الشمولي الذي يتجاوز مشهدية الجملة وينسحب على كل بنية سردية ممكنة، كان لابد أن يُصرح بأنه اعتمد في ذلك على تلك المحاولة التجريدية التي قام بها سابقا الشكلاني فلاديمير بروب الذي حدد تلك الوظائف العامة التي كانت تقوم عليها كل الحكايات الروسية العجيبة، وما فعله غريماس بعد ذلك هو تعميم النموذج العاملي التجريدي على جميع الملفوظات والمنظومات السردية وكل الخِطابات المشهدية الممكنة، فجاء هذا النموذج العاملي مُتضمِّنا، في تصوره كما هو معرَوف، للعوامل التالية مع تحديد نوعية العلاقات التي تربط بين كل العوامل:

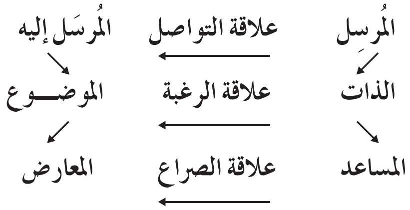

17 – رومان جاكبسون: "**قضايا الشعرية**". ترجمة مبارك حنون ومحمد الولي، دار تبقال للنشر.1988. ص: 29. وانظر أيضا اكتاب: إلمار هولينشتاين: "**رومان جاكوبسون أو البنية الظاهراتية**".. ترجمة عبد الجليل الأزدي. منشورات تانسيفت. ط: 1 1999. ص: 122.

18 - A . J Grrimas : **Sémantique Structurale, Recherche de Méthode**.France Larosse. Paris. 1966.p :172 ,175.

نتبين في هذا النموذج العاملي عددَ العوامل، وهي كما نرى ستة: الذات والموضوع، المساعد، والمعارض، ثم المرسِل، والمُرسَل إليه. وكلُّها تمثل البنية المجردة والميتا–لسانية للنموذج الذي يشتمل أيضا في بنيته على نوعية العلاقة بين كل زوجين من العوامل، وهي ثلاث علاقات، كما هو ماثل في الخطاطة أعلاه:

– علاقة الرغبة، وهي قائمة بين الذات والموضوع.

– علاقة الصراع، وهي قائمة بين المساعد والمعارض.

– علاقة التواصل، وهي قائمة بين المُرسِل والمُرسَل إليه.

ونرى أن هذه العلاقة الأخيرة في حاجة للتوضيح، وقد قدمه غريماس بالفعل حين رأى أن كلَّ ذات راغبة في موضوع ما، لابد أن يكون وراءها وازعٌ أو حافزٌ افتراضي سماه مُرسلاً، يَحُثُّ الذَّات على أن ترغب في موضوع ما[19]. ونقترح هنا مثال "وازع الحفاظ علَى النَّسل" الذي من شأنه أن يَحُثَّ الذات على الرغبة في الرفيق الدائم، والرفيق يُمثَلُ في هذه الحالة المَوضوع المَرغوب فيه. أما المُرسَل إليه فيمكن أن يُعبَّرَ عنه بفرحة الوالدين أو بالاستقبال الترحابي للجماعة البشرية التي تنتمي إليها الذاتُ المُحَقِّقَةُ لرغباتها.

بقي أن نشير إلي أن تجسيد العوامل في النصوص السردية، يتجلى في من سماهُم غريماس بالمُمثلين acteurs، وأن كل عامل يمكن أن يقوم بدوره مُمثلٌ أو أكثر، كما أن كل مُمثِّل يُمكن أن يؤدي دور عامل أو أكثر، وهذه الحالة الأخيرة تحدُث حين ينتمي ممثل لعامل محدَّد خلال فترة سردية، ثم ينتقِل بعدها إلى تمثيل عامل مغاير، كأن ينتقل على سبيل المثال من ممثل للعامل الذات إلى مُمَثِّل يُعارضُ هذه الذات. كل هذا يُحدِثُ نوعا من التعقيد في التمييز بين العوامل والممثلين.

ونشير بعد هذا إلى أن حرص الساردين على الدقة في البناء الحكائي يُسهِّلُ نقديا دراسةَ العلاقات والانتماءات العاملية للممثلين، وبذلك يمكن لكل ناقد في السرد أن يُحقق إنجازا علميا دقيقا ومنطقيا في تحليل البنيات السردية ومسارها الدلالي. ونرى أن معاينة وتحليل النصوص المُماثلة لبعض إجراءات الفحص التجريبي هي التي مكنت غريماس من استنتاج وبناء النموذج العاملي، وَفي ما يخص العلاقة بين العوامل والمُمثلين، فهي تمثل نظريا التركيبة التي تُبنى عليها البرامجُ السردية في نص حكائي، وما يحصل فيه من تفاعلات وتغيرات انطلاقا من بدايته إلى نهايته[20].

---

19 - Ibid. p : 61.

20 – النموذج العاملي عند غريماس مجال أساسي لإبراز الدينامية السيميائية في جميع أنواع الأشكال السردية، وفيه ينشأ تفاعل مُزدوج: الأول يحدث بين العوامل المختلفة والثاني يجري بين المُمثلين حسب قرابتهم أوتمثيلهم لأحد العوامل، وما ينشأ عن ذلك من تآزر أو صراع. وقد فصلنا القول عن هذا التفاعل بين العوامل والممثلين في كتابنا "**بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي**". المركز الثقافي العربي. الطبعة الثالثة. الدار البيضاء. 2000. ص: 35-37.

يمثل النموذج العاملي عند غريماس كما رأينا نظرية علمية مجردة، تهتم بالحقل السيميائي الدلالي المتعلق بكل ما ينتمي للبنيات السردية. وقد حصرنا الاهتمام بالبنيات والعوامل التي تقوم عليها الأعمال السردية، وما يكون للعلاقات القائمة بينها وبين الممثلين، في سياق البرنامج السردي، من متغيرات ودلالات. والداعي إلى هذا الحصر عائدٌ إلى أن ربط التحليلات بما هو خارج عن النصوص سيوقف النقاد على قضايا وظواهر وآراء وإديولوجيات قد تكون عصية على إخضاعها لتلك الصرامة المعرفية والمنطقية والعلمية التي رأيناها في ما قدمناه سابقا، علما بأن المنهج السيميائي عند غريماس تطور فيما بعد و أصبح مؤهلا لأن يكون وسيلة لتحليل جميع القضايا والظواهر الحاملة للرغبات والمواقف الاجتماعية والصراع والتواصل واختلاف وجهات النظر والأهواء[21]. ولا شك أن الممارسة المعرفية للنقد الأدبي مع هذا المنظور المنفتح على ما هو خارج النص، ستتراجع إلى حد ما عن صرامتها العلمية عند التحول إلى تفعيل التأويلات ووجهات النظر، مما سيجعل التحليلات النقدية ونتائجها تبقى في درجة ما من النسبية المعرفية، ومن البيِّن أن التعامل النصوص المُشبّعة بالأساليب الاستعارية وكل أشكال التخييل الرمزي، سيقود النقاد حتما في تحليلاتهم نحو الحِجاج أكثر من المنطق، وصوب النسبية في الآراء التأويلية أكثر من تأكيد الحقائق.

منظور الحدس العقلي في النقد الأدبي

إن مفهوم الإتجاه الفينومينولوجي يستلزم عند الفيلسوف النمساوي إدموند هوسرل Edmund Husserl، مُعاينة وفحص جميع أنواع الظواهر من أجل تحقيق نتائج المنظور الحدسي العقلي[22] الذي من شأنه أن يرقى بعيدا إلى حد ما عن الحدس الحسي للظواهر التي نقوم بمعاينتها، وتنشأ عن ذلك تَمثلاتٌ ذهنيةٌ تُعدُّ استيعابا خاصا لتلك الظواهر. النتيجة مع كل هذا البحث المعرفي تبقى دائما في إطار الخاصية الظاهرية التي تستوعبها الذواتُ بحدسها العقلي، أما حقيقة الظواهر في حد ذاتها فستبقى عليها بعض علامات الاستفهام، ونستنتج من هذا أن الفلسفة الفينومينولوجية تتشبثُ بالوعي النسبي للظواهر وليس بوعي مُطلق لها. مع كل ذلك لا يغادرُ البَحثُ الفينومينولوجي الصفة العلمية كليا، لأنه عمليا يُطبق، كما أشرنا، بعض آليات العلم التجريبي مثل المعاينة

21 – سعيد بوعيطة. "**المرجعية المعرفية للسيميائيات السردية جريماس نموذجا**". مقال وارد بالعربية ضمن الصحيفة العالمية التالية: Semat An International Journal . العمود: 2. ص: 51. أنظر ما ورد تحت العنوان الفرعي التالي : تركيبة سردية. المقال منشور بتاريخ: 1 ماي 2013، على الموقع التالي:
http ://dk.doi.org/10.12785/semat//010105

22 – إدموند هوسرل "**فكرة الفينومينولوجيا**".. ترجمة: فتحي إنقزو. مركز دراسات الوحدة العربية. الطبعة الأولى. بيروت. 2007. انظر على الأخص ما ورد في الثبت التعريفي الذي وضعه المترجم في نهاية الكتاب وخاصة ما يتعلق بتعريف "الظاهرة" وكذا مصطلح "المحايثة " حسب تصور هوسرل. ص: 130.

والفحص والاستنتاج[23]، وهذا ما يجعل المبادرات التحليلية تكتسب صفة الموضوعية، مع احتفاظها في نفس الوقت بصفة البعد النسبي عن الحقائق التامة للموجودات، لأن بعض الاستخلاصات تقوم عند الباحث على الحدس الذي يبلغ في نفس الآن درجة ما من الوعي والصدق والإمكان[24]، وهذا ما جعل المستوى المعرفي في الاتجاه الظاهراتي يَطرح السؤال بحدة حول مدى مًطابقة معرفة الذات المحصورة في المعيش النفسي لحقيقة الموضوعات الواقعية في حد ذاتها، وهذا ما جعل السؤال ذاته يصبح لغزا ، هذا اللغز تم التعبير عنه كما يلي:

((.. إن المعرفة، فيما هي عليه، مَعيشٌ نفسي، إنها معرفة ذات عارفة تقوم قُبالتَها موضوعاتٌ مَعروفة. كيف للمعرفة الآن أن تتيقن من مُطابقتها ًللموضوعات المعروفة؟ ..كيف لها أن تتجاوز نفسَها وأن تتعلق بموضوعاتها علىَ وجه اليقين؟ إن مُثول موضوعات المعرفة في المعرفة، والذي هو بالنسبة إلى الفكر الطبيعي أمرٌ بَيِّـنٌ بِنفسه، قد أصبح لُغزا.))[25] (هوسل ص: 52.)

نتساءل بعد هذا عن الكيفية التي استفاد بها النقد الأدبي من الفلسفة الظاهراتية، وهذا ما سنحاول إلقاء الضوء عليه باختصار، لأن الذي يهمنا هو هذه الكيفية بالذات. ونرى ان رولاند بارت جعل النقد الموضوعاتي المنسوب إلى الفلسفة الظاهراتية، من جملة الأنماط النقدية التأويلية التي تتكئ على وجهات النظر الذاتية والنفسية وكذا الإديولوجية، وذكر من بين النقاد الغربيين المختلفين في اتجاهاتهم والذين مثلوا مع ذلك هذا الاتجاه النقدي الموضوعاتي: جورج بولي، وجـــان بيـــير مـــاشري، ورونيـــه جرار وجان بيير ريشار وجان ستاروبنسكي وغيرهم من النقاد المتشبعين بعلم النفس[26]. وقد نعزو هذا التنوع، رغم أن النقد الموضوعاتي واحد، إلى أن الفلسفة الظاهراتية، كما رأينا سابقا، تجمع بين المعاينات الحسية للظواهر وتكوين بعض الماهيات المتسقة عنها في الوعي الذاتي، وهذا ما جعل المنهج الموضوعاتي منفتحا في اتجاه استيعاب الظواهر حسيا واستقلال الذوات بالنتائج النظرية، وهذا يُسهِّلُ التأثر بكل ما هو ذاتي وموضوعي من المناهج الرائجة في الحقل النقدي الأدبي. ونشير هنا إلى أن أكثر

23 – نادية وهدان أحمد ابراهيم. "**الظاهراتية وتغير مفهوم التجريب في التصوير المعاصر**". بحث منشور في مجلة العمارة والفنون، المجلد: 8 العدد: 41 سبتمبر 2023. صفحات المقال من 538 إلى 555. انتبهت الباحثةُ في دراستها هذه إلى أهمية التقاء الحدس العقلي الذاتي القريب من المثالية بتوظيف بعض المعطيات التجريبيةَ في الاتجاه الظاهراتي وإمكانية تطبيق هذا المنظور في دراسة الفنون ومنها التصوير. انظر على الأخص ما ورد في الصفحة التالية : 539.

24 – عادل مصطفى. "**فهم الفهم مدخل إلى الهيرمينوطيقا نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامير**". مرايا الكتاب رؤية للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى، 2007. ص: 161 – 163.

25 – إدموند هوسرل "**فكرة الفينومينولوجيا**". (مذكور سابقا). ص: 52.

26 - Roland Barthes : **Essais Critiques**. France, Edition du Seuil Paris 1964, p : 246.

ناقد موضوعاتي دعوة لتحرير هذا النقد من كل القيود هو جان ستاروبنسكي Jean Starobinski الذي اشتهر بتنوعه المعرفي ودعا للحرص على الدقة المنهجية وحضور وسائل التحليل، وانطلقَ بعد ذلك نحو " التحرر التأملي" من كل قيد حتى وان كان منهجيا[27]. وهذا التصور هو بالذات ما عززته الفينومينولوجيا عند هوسرل، حين جعلت المعاينة الحدسية العقلية للظواهر تعلو على المعاينة الحسية لها. إذن فالعلم في النقد الموضوعاتي ينسجم مع المبادرات الذاتية التأملية والتأويليةَ.

التأويل الارتيابي والنقد الأدبي

ظهرت بوادر الارتياب، في نظر بول ريكور Paul Ricoeur، حول ما يتعلق باستخلاص المعاني والحقائق الاجتماعية وغيرها من الظواهر التي يُعايِنُها البشر، ومنها قضايا الكينونة والخطابات التوجيهية والإبداعية وبعض المُعتقدات، نقول ظهرت علامات الارتياب مع ماركس ونيتشه، وفرويد، فجميعهم ساروا في اتجاه الشك في الظواهر المدروسة وتعرية الأفكار المُضَلِّلة و الادعاءات الباطلة وكشف إخفاء الحقائق الواقعية، وما قد يكون لذلك من أثر يتجلى في انحراف الوعي بفعل التضليل، ففي المنظور الماركسي يكون الاستلاب دالا على ضياع هوية الأفراد ووعيهم، وهذا يدعو الدارس لاتخاذ موقف المُرتاب للبحث العميق عما يكون من وراء التضليل ممن تيهان، وهذا الاحتياط من شأنه أن يساعد على الاقتراب من الحقائق وليس بُلوغِها[28].

يرى ريكور، أن نيتش امتلأ ارتيابا حين كشف زيف بعض قيم التعظيم التي تُعْلي من شأن الضُّعفاء عندما يؤثر عليهم ويجعلهم يفتخرون بوضعية فقرهم، والارتيابَ في هذه الحالة يستدعي الكشف مثلا عن أن هؤلاء الضعفاء هم في وضعية استغلال يتم اخفاؤه عن وعيهم بتوظيف خطاب مَدحي مُزيف ليقبلوا بوضعهم كما هو على الدوام[29].

ويبدو أن ما جاء به فرويد أيضا في مجال التحليل النفسي، وعلى الأخص ما يتعلق باللاشعور، قد أثار اهتمام ريكور بما يكون لذلك من تأثير على البحث عن الحقائق. والواقع أن مفهوم اللاشعور يدعو بالضرورة إلى اتخاذ حالة عالية من الاستنفار الارتيابي عند قيام أي ناقد أو دارس بالبحث في الحقل النفساني والاجتماعي أو عند محاولة دراسة الوقائع والوضعيات والخطابات التعبيرية والأدبية، فاستخلاص المعاني والعبر ينبغي في

---

27 – جان ستاروبانسكي. "**النقد والأدب**". ترجمة: د. بدر القاسم. مراجعة: انطوان المقدسي. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق. 1976. ص: 23 – 24، 27 – 28.

28 – عادل مصطفى: **فهم الفهم مدخل إلى الهيرمينوطيقا: نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامير**". رؤية للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى. 2007. ص: 440 – 443، 448 – 449.

29 – المرجع السابق. ص: 462 – 463.

جميع الأحوال أن يُراعي أن عقل الإنسان ووعيَه مرتبطان على الدوام بعوالم لاواعية، وهذا يتطلب كثيرا من الاحتياط الارتيابي كي لا تخدعَ الناقدَ والدارسَ تلكَ العلاماتُ الظاهرة للعيان وتُفوِّتَ عليهما فُرصةَ كشفِ أسرار اللاشعور الخفية[30].

عند التأمل في الدافع الأساسي الذي جعل بول ريكور يولي هذا الاهتمام البالغ للخطوة الأولى التي يلزم أن يتخذها أي ناقد يريد البحث في الظواهر والنصوص، سنجد ذلك يعود إلى إصراره على اتخاذ مسافة ما عن هرمينوطيقا هوسرل، بالرغم من أنه اعتمدها مبدئيا في تصوره التأويلي، كما اعتمدتها أيضا نظرياتُ التلقي التأويلية، لكنه لاحظ أنها أولت أهمية مفرطة لجعل الحدس الذاتي المثالي وسيلة موثوقة لبلوغ الحقائق. في هذا السياق يُحاول ريكور أن يجعل الذات الفاحصة بعيدة إلى حد ما عن ثقتها العفوية فيما تعاينُه، بمعنى أن تتحلى بيقظة فكرية تأملية عالية، إلى حد الارتياب في كل ما يطل عليها لأولِ وهلة من دلالات ، عند مباشرة تحليل أي ظاهرة أو أي خطاب لغوي، خصوصا إذا كان هذا الخطاب مسلحا بالاستعارات والرموز.

يتبن لنا أن ريكور كان هدفه من الاهتمام بمبدأ الارتياب هو جعل نظريته التأويلية الظاهراتية تحتل منزلة قريبة فقط من الفحص العلمي للظواهر والخطابات، ما دامت نتائجها تبقى في حدود الرأي التأويلي، وهي لذلك لا تدعي بلوغ الحقائق المطلقة وإنما تبقى في نطاق التحصيل النسبي لها، كما أن الظاهراتية لا تنشغل أيضا بالبحث عن القصدية، فإذا كان الموضوع متعلقا بمعاينة خطاب إبداعي، فإن علاقة المُؤوِّل به لا شأن لها بمقصدية مؤلف الخطابِ، ولكن بالكيفية التي يتفاعل بها القارئ مع الخطاب الابداعي وما هي النتيجة التي تَمَكَّن من تحصيلها؟[31]. أما فيما يتعلق بقيمة ومصداقية ناتج التفاعل التأويلي، فهذا سيكون مرهونا، في تصورنا بمستوى الإثباتات التي سيحاول بها المؤول إقناع قرائه.

توضيحات مُركزة عن العلم والنقد وما يفرضه الأدب

تبين لنا في هذه الدراسة أن استفادة النقد الأدبي من العلوم المختلفة لدعم تحليلاته ومناهجه، كانت أمرا سَهْلَ الإثبات بالنظر إلى الحضور الفعلي لكثير من علامات العلم ونظرياته في معظم الدراسات النقدية التحليلية للنصوص الأدبية، وما ينتج عن ذلك من

30 – " **فهم الفهم مدخل إلى الهيرمينوطيقا**... " مذكور.". ص: 448 – 450.

31 – لمزيد من التوسع في هذه الجانب، نحيل مجددا على المرجع السابق: ص: –456 457. وانظر أيضا إلى ما ورد عن وجود النص على مسافة من كاتبه وعن المتلقي، وهذا ما يعزز استقلاليته، لكن ليس هناك مانع من أن يجد القارئُ المُؤول حُضوره التفاعلي مع النص، وهذا ما يعبر عنه ريكور بلفظ المُلاءمة. انظر أيضا المرجع التالي: **النظرية التأويلية عند ريكور**. حسن بن حسن. نَشْرْ: ج.ج تنسيفت. الطبعة الأولى. 1992. ص: 46 – 47. وانظر بخصوص مصطلح الملاءمة إلى ما ورد بشأنه في كتاب بول ريكور التالي: "**من النص إلى الفعل**". ترجمة محمد برادة وحسان بورقية. منشورات عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية . الطبعة الأولى: 2001. ص: 117 – 118.

خلاصات عامة في التنظير، كما رأينا في مثال الدراسات السردية. وقد جاء الاهتمام مُركِّزا على تأثير العلوم البحتة في نطاق الرياضيات والمنطق، وكذا توظيف بعض الإجراءات المُنتمية للعلوم التجريبية في دراسة النصوص الأدبية، وركزنا أيضا على الدور الذي كان لعلم اللسانيات وتأثيره في تطوير المناهج النقدية البنيوية والسيميائية ودورهما الفعال في استيعاب معظم الأعمال السردية والأدبية على العموم. ونظرا لاتساع نماذج الدراسات النقدية الأدبية التي تمّ إنجازها بمنهجيات متعددة مُستقاة من علم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس فقد دلَّ ذلك، من جهة أخرى، على أن العلوم الإنسانية كانت حاضرة بمختلف أنواعها ومستوياتها المعرفية، علما بأننا اقتصرنا في هذا الجانب على الإشارة إلى أن الأدب، كان بالفعل مُواكَباً، منذ زمن بعيد، بترسانة من هذه العلوم الإنسانية التي تأسست على إثرها، بفعل قيمتها المعرفية جملةٌ من المناهج المتنوعة وهي المنهج التاريخي، والسوسيولوجي والمنهج النفساني ثم الموضوعاتي، وقد كان ولا يزال لها دورٌ أساسي في تحليل الأعمال الأدبية واستيعاب بنياتها ومضامينها. ونشير إلى أن هذا الموضوع يحتاج إلى دراسات أوسع بكثير من المجال المحدود لهذا البحث الحالي[32]. وهناك سؤال أساسي ينبغي طرحه هنا وهو التالي: هل يمكن أن تتعادل نتائج تحليلات النقد الأدبي، مع مستوى نتائج تحليلات العلوم البحتة والتجريبية في مجالهما الخاص؟ نظن أن الدراسة قد أجابت عن هذا السؤال بشكل تقريبي حين أشرنا فيها إلى اختلاف مُستويات العلوم في العطاء والمصداقية، وهذا جانب متعلق بمدى الاقتراب من الحقائق أو البقاء بعيدا عنها. وإذا ما أردنا التأمل من جديد بشكل أوضح نذكر أولا بأن العلوم البحتة وهي الرياضيات والمنطق، كانت ولا تزال في أعلى سلم الاقتراب من الحقائق والمصداقية لتلاءم نتائجها مع ما يقبله العقل والبداهة، لكن، لا ينبغي إغفال الاختلاف حول هذه النقطة وخاصة فيما يتعلق بالحساب الهندسي الذي قيل بأنه أحيانا صحيح نظريا وخاطئ تطبيقيا، وهذا يُوجِدُ احتِماليا هامشا نسبيا من الحقيقية في بعض العلوم البحتة.

رأينا أيضا في متن الدراسة، تبعا لما تحدث عنه الباحث جان بول توماس J.-P. Tomas، أن العلم دالٌّ على مبادرات ذهنية تعمل جاهدة لبلوغ نتائج معرفية ثابتة وراسخة، وقد رتب العلومَ التجريبية في المرتبة الثانية، لأنها أيضا ذات مصداقية عالية

32 – للاطلاع على معظم النظريات المعرفية ودورها في تأسيس المناهج النقدية وأدوارها في نشأة المناهج النقدية الأدبية يمكن الرجوع إلى الكتابين التاليين:

- Jean yves Tadié **La critique littéraire au XX siècle**. Belfond. 1987.

– حميد لحمداني: "**الفكر النقدي الأدبي المعاصر (مناهج ونظريات ومواقف)**". منشورات مشروع البحث النقدي ونظرية الترجمة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز (مشروع بروتارس). الطبعة الأولى: 2009. أما الطبعة الرابعة المُحال عليها هنا، فهي منشورة من قبل المؤلف. سنة: 2018.

بعد الرياضيات والمنطق، غير ان العلوم التجريبية قد تفقد هي الأخرى ثبوتيتها، كما بينا مع برتراند راسل Bertrand Russell، وبذلك تحاول أن تتفادى بعض أخطائها. كل هذا يعني بوضوح أن العلوم البحتة والتجريبية تسير من جهة، في واقع تحصيل الحقائق بنسبة معرفية عالية، ولكنها في نفس الوقت لم تحقق المعرفة العلمية التامة أي ما يمكن اعتباره علما مُطلقا. وهذا ما لا يُلتفَتُ إليه عادة حينما تتم المقارنة بين قيمة العلم ومثيلها في مجال النقد الأدبي. وللأسف قد يتم الحكم من قِبَــلِ البعض على أنه لا فائدة من الأدب ونقده، كما قد يُنظر إلى العلوم الإنسانية المتصلَة بعَالم النقد الأدبي على أنها ثانوية في حياة الإنسان واهتماماته، في حين أن واقع الحال، ليس بهذا المنظور السلبي. وعند مواصلة الإجابة على السؤال المتعلق بمستوى النتائج بين العلوم البحتة والتجريبية من جهة، ونتائج البحث في النقد الأدبي من جهة ثانية، نشعر أن هذا السؤال في حد ذاته يفقد تدريجيا أهميته، وذلك بسبب أن النقد الأدبي لم ينقطع في أية لحظة، وخاصة في الفترتين الحديثة والمعاصرة، عن الاستفادة من العلوم البحتة الرياضية والمنطقية، كما نراه يتبنى آليات التحليل والمعاينة المعتَمدة في العلوم التجريبية، فضلا عن اعتماد النقد الأدبي في التنظير والتحليل على العلوم الإنسانية المختلفة: التاريخية والاجتماعية والنفسانية والهيرمينوطيقية، وهذا السند العلمي كله يجعل النقد الأدبي منتميا إلى العلم بصنفيه التجريدي والتجريبي، بالإضافة إلى العلوم الإنسانية. على أن ما يميزه بشكل ملحوظ المعالم، كونُه ينخرط بقوة في علم التأويل، أي في المجال الذي يحتضن الآراء ووجهات النظر والاحتمالات، ولذلك فبقدر ما يمتلك النقد الأدبي القدرة على البرهنة والإثبات، بقدر ما يُطوع زمامَ الكشف عن غوامض الاستعارات والرموز والأساطير الأدبية. وهذا ما جعل الباحث بول توماس يُبوّءُ النقدَ الأدبي، ضمنيا مع المجال التأويلي، المنزلة العلمية الثالثة، لأن حقل النتائج ذات الطبيعة النسبية يبدو أوسع فيه إلى حد ما من مجال الاقتراب من الحقائق. ونتأكد هنا أن النقد الأدبي ليس غريما لأصناف العلم بل هو حليفُها ومُستعملُها ومُساندها ومشاركها معرفيا وتأويليا وانسانيا، وما يجعل النقد الأدبي متميزا، هو تلك القدرة الفائقة على معاينة النصوص الاستعارية والرمزية تأمليا وارتيابيا من أجل الكشف عن أسرارها وخلق مناخ حواري حولها، علما بأن النصوص الأدبية شديدة الارتباط بالإنسان وهواجسه وتطلعاته.

مراجع الإحالات النصية:

- برتراند راسل Bertrand Russell. **النظرة العلمية**. ترجمة: د.عثمان نويه. مراجعة: إبراهيم حلمي عبد الرحمان. بغداد العراق. دار المدى للثقافة، الطبعة الأولى. 2008.

- Claude Bremond, **Logique du Récit**, Frannce,Paris. Seuil 1973.

- إدموند هوسرل . "**فكرة الفينومينولوجيا.**".. ترجمة: فتحي إنقزو. مركز دراسات الوحدة العربية. الطبعة الأولى. بيروت ، لبنان . 2007.

مراجع دعم البحث:

- Jean Paul Tomas, **Notion de Science:.** encyclopedie Universalis https://www.universalis.fr/encyclopedie

– تيري إجلتون: "**الظاهراتية والهيرمينوطيقا ونظرية التلقي**" ترجمة محمد الخطابي. مجلة علامات العدد الثالث منشور الكترونيا بتاريخ 13 غشت 2020.

–عادل مصطفى، "**فهم الفهم مدخل إلى الهيرمينوطيقا نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامير**". مصر . مرايا الكتاب و رؤية للنشر والتوزيع. القاهرة ، الطبعة الأولى، 2007.

– كارلوني وفيللو ، **النقد الأدبي**. ترجمة: كيتي سالم، مراجعة: جورج سالم. منشورات عويدات. بيروت لبنان – باريس. الطبعة: الثانية: 1980.

– حميد لحمداني، **الفكر النقدي الأدبي المعاصر مناهج ونظريات ومواقف**" المغرب نَشرَهُ : المُؤلِّف. مطبعة أنفو برانت. فاس، الطبعة الثانية. 2012.

- Gérard Delfau et Anne Roche: **Histoire Littéraire et Interprétation du fait Littéraire**. Frannce, Seuil. 1977.

- Emile Hennequin ; **La critique Scientifique**, Frannce PARIS , Libraires-Editeurs. Troisième Edition..1988.

-Marie Geuthmuller, **«Herbert Spencer et La critique Scientifique». Taine, Hennequin, Bruntière**. Arts et Savoirs [en ligne],4 1 2014, mis en ligne le 15 mai 2014 ,consulté le 20 avril 2019.URL : http://journals.openedition.org/aes/286 ;DOI ;10.4000/aes.286 .

– محمد ثابت الفندي. **أصول المنطق الرياضي** بيروت لبنان . الطبعة الأولى. دار النهضة العربية للطباعة والنشر .. 1972.

______ Claude Bremond, **Logique du Récit**, Frannce, Paris. Seuil 1973 -

– حميد لحمداني، **الرواية مدخل نظري**"... البيضاء. المغرب. منشورات دراسات سال (دراسات سيميائية أدبية لسانية).. 199

– سعد مصلوح ، **الأسلوبية دراسة لغوية إحصائية**. القاهرة. مصر دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، 1984.

– حميد لحمداني، "**بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي**". المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى. 1991.

– رومان جاكبسون **قضايا الشعرية**. ترجمة مبارك حنون ومحمد الوالي، المغرب دار تبقال للنشر. .1988.

– إلمار هولنشتاين : "**رومان ياكوبسن أو البنية الظاهراتية**". ترجمة عبد الجليل الأزدي. لمغرب منشورات تانسيفت. مراكش. ط: .1 1999.

- A . J Grrimas : **Sémantique Structurale, Recherche de Méthode**. France Larosse. Paris. 1966

ـــــ برتراند راسل Bertrand Russell **النظرة العلمية**. ترجمة: د.عثمان نويه. مراجعة: إبراهيم حلمي عبد الرحمان. بغداد العراق. دار المدى للثقافة، الطبعة الأولى. .2008

– سعيد بوعـيطة "**المرجعية المعرفية للسيمـــيائيات السردية جريماس نمـــــوذجا**". مقـــال وارد بالعـــــــربية ضمن الصحيفة العالمية التالية: Semat An International Journal . العمود: 2. منشور بتاريخ: 1 ماي 2013، على الموقع التالي: http ://dk.doi.org/10.12785/semat//010105

ـــــ إدموند هوسرل . "**فكرة الفينومينولوجيا.**". ترجمة: فتحي إنقزو لبنان. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت الطبعة الأولى. 2007.

– نادية وهدان أحمد ابراهيم "**الظاهراتية وتغير مفهوم التجريب في التصوير المعاصر**".. بحث منشور في مجلة العمارة والفنون، المجلد: 8 العدد: 41 سبتمبر 2023.

– عادل مصطفى، "**فهم الفهم مدخل إلى الهيرمينوطيقا نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامير**". مصر . مرايا الكتاب و رؤية للنشر والتوزيع. القاهرة الطبعة الأولى، 2007.

- Roland Barthes : Essais Critiques. France, Edution du Seuil Paris, 1964.

– جان ستاروبانسكي، "**النقد والأدب**" ترجمة: د. بدر القاسم. مراجعة: انطوان المقدسي. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق. 1976.

– حسن بن حسن: "**النظرية التأويلية عند ريكور**" المغرب، نَشْرْ : ج.ج تنسيفت. مراكش الطبعة الأولى. 1992.

– بول ريكور: "**من النص إلى الفعل**". ترجمة: محمد برادة وحسان بورقية. مصر. منشورات عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية القاهرة . الطبعة الأولى: 2001.

- Jean yves Tadié **La critique littéraire au XX siècle**. Belfond. 1987.